الفلسفة وأيديولوجيا السلام ـ مقاربات فلسفية

د . سالم حسين العادي ـ كلية الآداب الزاوية ـ جامعة الزاوية

المُقدّمـــــــــة :

إنَّ الاهتمام بالسلام والسعي نحوه كان دائمًا مطلبًا إنسانيًا على مرِّ الأزمنة والعصور، فكانتِ المفاهيم المُتعلقة بالسلام قديمةً قدم الإنسان نفسه، وكان السلام ولم يزل حلمًا للبشرية منذ عصور عديدة، فقد عانت البشرية كثيرًا من ويلات الحروب والصراعات والعنف والإرهاب لدرجة أنَّ السلام يكاد يُشكِّل استثناء في مواجهة قاعدة الصراع والحرب ، وخاصة في الوقت الحالي ونحن في الألفية الثالثة، إذ نشهد تزايدًا ملحوظًا في معدلات الصراعات والعنف بجميع أشكاله على الرَّغم من تطور الوعي بوحدة المصير الإنساني، وبأهمية السلم كفرض من فروض التنمية والرخاء، فدروس التاريخ تنبهنا بأنَّه كان هناك دائمًا جدلية عاشتها البشرية – ولم تزل – وهي جدلية الحرب والسلام، وقد اختلفتِ الآراء والتوجهات في تعريف مفهوم السلام، كما اختلفت في توضيح ورصد أسباب إحلاله وكذلك انهياره، وهو كأي مفهوم آخر تعدَّدت تعريفاته تبعًا لتعدد استخداماته وأغراضه، هذا فضلًا عن أنَّ المفهوم ـــ عادة ـــ ما يرتبط بإطار فكري وفلسفي معين يكون له أثر كبير في تعريفه وتحديد طبيعته، وحاليًا لم يعد موضوع السلام هو فقط عدم الحرب، بل أصبح للسلام أبعاد عديدة ترتبط بها إشكاليات كثيرة، فالعدل واحترام حقوق الإنسان، وغيرها كلها تدخل ضمن أبعاد مفهوم السلام المختلفة .

أسباب اختيار الدراسة:

يُعدُّ موضوع السلام من الموضوعات التي يتجدد فيها البحث بتجدد الأزمنة والأمكنة، ومن ثمَّ فقد شغل مساحة في تراث الفكر الفلسفي ، وحين نتأمل هذا الموضوع، نجد أنَّ الفلاسفة هم أول من توقف عنده وسجلوا تأييدهم له، ومازال الفلاسفة يتأملونه ما دامتِ الفلسفة باقية، من هنا كان سبب الاختيار لهذه الدراسة تأكيدًا على ما درج عليه الفلاسفة قديمًا وحديثًا.

أهمية الدراســـــة:

تكمن أهمية الدراســـــة في كون الاهتمام بالســـــــلام لم يعد حكرًا على رجال السـياسـة والقانون ، بل شـاركهم في ذلك الفلاسـفة الذين وجدوا أنفسـهم مضـطرين للخوض في غمار العمل السياسي، وتسخير فلسفتهم للدعوة للسلام العالمي.

منـهجية الدراســـة:

استخدم الباحث المنهج التحليلي والتاريخي وفقًا لطبيعة الطرح الفلسفي لموضوعات الدراسة؛ بغيَّة تحقيق المرجُو من الدراسة.

تساؤلات الدراســـة:

تدور التساؤلات حول الآتي:

1ـــ على الرَّغم من كل المحاولات التي تسير في اتجاه الدعوة للسلام العالمي إلَّا أنَّها لم تؤثِّر في ميدان العمل السياسي، كيف حدث ذلك؟

2- هل تمت دعوة صريحة من الفلاســـــفة تجاه تحقيق السلام ، أم أنَّها كانت مجرد يوتوبيات فقط؟

3- هل تحقَّق فكرة عالم جديد يجمع ما بين السلام الدائـــــــم والحرية للجميع أمر ممكن التحقق؟ وهـــل حقًا أنَّ الحروب الصغيرة إذا أمكن إيقافها فإنَّ الحروب الكبيرة لن تحدث؟

ومن أجل الإحاطة الفلســـــفية قُسِّمتِ الدراســـة إلى المُقاربات الآتية:

أولًا ـ مقاربة السلام في العصور الوســـــطى:

تبدأ فلسـفة العصـور الوسـطى على وجه التقريب في القرن التاسـع الميلادي وتنتهي في القرن الرابع عشـــر، أمَّا الفترة التي جاءت منذ بدء المســـيحية حتى القرن التاسع فيُطلق عليها اسم "عصر الآباء"؛ وذلك لأنَّ التفكير في هذه الفترة كان مُقتصرًا على آراء آباء الكنيســة الأولين الذين كان همَّهم الأكبر هو الدفاع عن الدين المســيحي ضـــد الغارات العنيفة التي شـــنَّها الفلاســـفة اليونانيين من رجال الأفلاطونية المُحدثة آنذاك، وكان من بينهم من آمن بالفلسفة اليونانية ـ وبخاصة الأفلاطونية المحدثة ـ إلى جانب إيمانه بالمســـيحية، ومن أشـــهر هؤلاء: بوســـتينوس، وبازليوس، وكليمانس الإسكندري [1].

أمَّا القديس توما الإكويني فكانت فلسفته في صحيحها عبارة عن تجربة القصد منها توحيد عام ونظام شامل مفتاحه الوفاق والتنسيق، فعنده أنَّ الإله والطبيعة أكبر من

أن يضيقا بإيجاد محراب يتسع لكل الخلافات التي تنتاب هذا الوجود المحدود، وتتفق الصورة التي تخيلها الإكويني عن الطبيعة اتفاقًا تامًا مع رأيه في المعرفة، فالكون عنده عبارة عن نظام مرتب يمتد في درجات من الإله في علاه وينتهي عند أدنى المخلوقات، ويعمل كل كائن منها بدافع داخلي مستمد من طبيعته مجاهدًا في سبيل الخير، حتى يأخذ مكانه في هذا النظام التصاعدي حسب درجة الكمال التي وصل إليها، وفي هذا النظام يكون للطبيعة البشرية مركزًا فريدًا بين المخلوقات كافة، ويقضي الخير العام للمجتمع بأنَّ يكون لهذا النظام هيئة حاكمة تسير شؤونه كما تسير الروح الجسد ومجمل فلسفة الأكويني أنَّ الغرض من قيام المجتمع غرض أخلاقي أساسه قيام المجتمع على أسس قانونية للوصول إلى السلام[2].

أمادانتي الغييري فقد اتَّحدت سياسته مع السياسة التي اعتنقها الموالون للإمبراطورية منذ قيام النزاع مع الكنيسة، للتدليل على أنَّ سلطة الإمبراطور مستمدة من الله مباشرة، وهي بذلك مستقلة عن الكنيسة، فرأي دانتي أنَّ ليس هناك بين البشر من يعلو على الإمبراطور، وذلك من منطلق أنَّ سياسة البابا مصدر نزاع لانهاية له، وما كان تعصب دانتي لفكرة الإمبراطورية المُوحِّدة إلَّا تمجيدًا لنظرية السلام العام العالمي.

ويرى دانتي أنَّ الإمبراطورية العالمية هي التي يجب أن تحتلَ مركز الصدارة بين كافة المجتمعات، ومادام العقل هو الصفة المُميزة للإنسان، فإنَّ غاية الإنسان أو وظيفته هي السعي لتحقيق حياة مُطابقة لأحكام هذا العقل، وأنَّه لا يمكن بلوغ ذلك إلَّا في ظل السلام العام العالمي الذي يعتبره دانتي ألزم شيء لسعادة البشر، وخير وسيلة للإنسان يصل بها إلى غايته[3].

كما يرى دانتي أنَّه لا يمكن إقرار السلام في أوربا بأسرها إلَّا إذا توحَّدت السلطة في يد الإمبراطور؛ لأنَّ سياسة الكنيسة مُتمثلة في سلطة البابا ترمي إلى فرض السيطرة على الإمبراطور، وبذلك تسبب بانقسامات داخلية، ويؤدي تحزبها إلى شيوع الفوضى واستشراء الفساد، وعلى ذلك فإنَّ الجنس البشري كله في حاجة إلى حاكم واحد وحكومة واحدة، على أساس أنَّه من المستحيل إقرار السلام بين الأفراد إلَّا إذا قام حاكم عادل [4].

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ فكرة السلام العالمي عند دانتى مُشروطة بقيام إمبراطورية عالمية واحدة، وبدون وجود هذه الإمبراطورية وعلى رأسها حاكم واحد، فإنَّ فرصة وجود سلام عالمي تكاد تكون معدومة.

أمَّا مارسيليو دى بادوا فقد وضع كتابه "دفاع عن السلم" مستهدفًا فيه مكافحة مزاعم البابا، ومحاولة الحد من سلطته السياسية، وهو كإيطالي مُحب لبلده قد كره البابوية كما كرهها دانتى من قبله، واعتبرها مارسيليو من أسباب تفكك إيطاليا وانقسامها. ولم يُؤلف مارسيليو هذا الكتاب دفاعًا عن الإمبراطورية أو تمجيدا لها، وإنَّما جاء هذا الكتاب رغبةً منه في هدم نظام السيطرة البابوية، وكذلك النظرية التي يقوم عليها القانون الكنسي الذي كان يُهدِّد فكرة السلام والاستقرار [5].

ثانيًا ـ مقاربة السلام في عصر النهضة:

يمثل عصر النهضة مرحلة الانتقال بين العصور الإقطاعية وبداية العصر الحديث، وكلمة نهضة تشير إلى حركة البحث الجديد أو الإحياء، وبالتالي إلى تلك الروح النقدية التي ظهرت بالنسبة للفلسفة والأدب وجميع المعارف والفنون الكلاسيكية، ومحاولة البحث والتجديد والتغيير من أجل تغيير المناخ الفكري الذي كان سائدًا عند الفلاسفة المدرسيين في العصور الوسطى، ويمكن تحديد هذا العصر تاريخيًا من النصف الأول من القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن السادس عشر، وكانت إيطاليا على وجه خاص رائدة أوربا في ذلك العصر [6].

وفي عصر النهضة أخذ الفكر يتحرَّر من سيطرة الكهنوت، وزاد الاهتمام بجمع المخطوطات وإيقاظ أدب خاص بكل لغة، كما زاد الاهتمام بالفن، وامتزجت هذه الاتجاهات بما عرف بحركة الإحياء الكلاسيكي أو "الحركة الإنسانية" التي حملت الناس على الاهتمام بالآداب الكلاسيكية ابتداءً من القرن الثالث عشر، ولم تعدِ المعرفة قاصرةً على رجال الدين، بل تعدَّتهم إلى غيرهم من عامة الناس، ولم تعدِ الكتب وقفًا على الموضوعات الدينية، ولم يعدِ القرَّاء والمثقفون من رجال الكنيسة فحسب، ونشأتِ الجامعات في كل أنحاء أوربا موئلًا للمعارف الجديدة، وأقبل الأمراء والأثرياء على رعاية الآداب والفنون، فغدت أكثر تعبيرًا عن عقل الإنسان وعواطفه [7].

إلَّا أنَّه ينبغي أن نعرف أنَّ اتجاهات عصر النهضة لم تُغيِّر من كل شيء، فقد لبثت بعض الاتجاهات القديمة كما هي، كما أنَّ البعض الآخر أصابه جزء ضئيل من التغيير والتجديد[8]"، فحيث كان مفكرو الإغريق غير مقيدين بتراث الماضي لأنَّهم كونوا تأملاتهم في فجر الفكر، كان رجال عصر النهضة مثقلين بظلال العصور الوسطى، فظل مضمون الفكر السياسي شبه مرتبط بهذه العصور بسبب تأثر فلاسفة عصر النهضة بمدرسية العصور الوسطى .

ولقد صاحب انهيار العالم المسيحي في العصور الوسطى نشوب الحروب الدينية في النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر، ولم يقتصر الأمر على إحياء أساليب العصور الوسطى في التفكير، بل تعداه إلى أن صار التراث الجدلي للعصور الوسطى والعاطفة المذهبية يفصحان عن نفسيهما في لون من التعصب لم يعرف منذ عهد الآباء الأولين [9].

غير أنَّ "الحركة الإنسانية " التي تمخَّضت عن فكر عصر النهضة قد أثمرت في الفكر السياسي ثمرة كان لها من التأثير ما فاق تأثير الحركة الإنسانية ذاتها، وهي ظهور الدولة القومية، فالحركة الإنسانية ساعدت إلى حدٍّ كبيرٍ على نشوء "الفردية " التي كانت العامل الأهم في تطور الأوضاع الاقتصادية ونشأة الدولة القومية الحديثة، وما تبعها من قيام فكر سياسي يؤيدها ويثبت أفضليتها، فقد أدَّى اتجاه الطبقة البورجوازية الناشئة عن انتشار المذهب الفردي الحر إلى الحاجة لدولة فسيحة تتسع لأعمالهم التجارية الكبرى، دولة كبيرة تقوم على أساس قومي تتقلص فيه حدود الإمبراطورية الدينية، ليحل المثل الأعلى لدولة مستقلة تمارس حقوق السيادة على أراضيها، وتعمل على تحقيق الرخاء والأمن القومي محل المثل الأعلى القديم لعالم مسيحي يقوم على روابط سياسية واهنة[10].

وهكذا ساعدتِ الحركة الإنسانية على نشوء الدولة القومية، ومع قيام الدولة القومية نشأتِ النظرية السياسية الحديثة التي تحلُّ السلطة المدنية محل السلطة الكنسية، وتبرر انتقال هذه السلطة من البابوات وأمراء الإقطاع إلى الملك أو الحاكم الزمني الذي يحكم لمصلحة الشعب، والذي يستند في حكمه إلى الحق الطبيعي دون الإلهي بعد أن زالت الحاجة إلى مثل هذا الزعم، وبعد أن قضتِ الدولة القومية على كل سلطة كهنوتية، وأصبح الأساس النظري للحكم علميًا وليس دينيًا[11].

ويُعدُّ مكيافيللي1469-1527 أبرز مُمثِّل لعصر النهضة، حيث يعكس صورة هذا العصر بكل وضوح، فقد تأثر بعصر النهضة تأثرًا واضحًا، وتأثَّر بظروف دولته إيطاليا بصفة خاصة، وعاصر الفساد الأخلاقي والاجتماعي والسياسي التي تعرَّضت له إيطاليا، وحزن لحالة التفتت والانقسام التي سادت بلاده في ذلك الحين. فقد كانت إيطاليا مُقسَّمة إلى خمس دويلات هي مملكة نابولي، دوقية ميلانو، جمهورية البندقية، جمهورية فلورنسا، والدولة البابوية في الوسط". ولم تكن هذه الدويلات مُوحَّدة على خلاف غيرها من الدول الأوربية، بل كانت متنازعة فيما بينها بسبب تدخل الدول الأجنبية لمنع وحدتها، وبسبب وجود البابا في قلب روما وحرصه على أن تبقى إيطاليا

مجزأة، وقد عاش مكيافيللي هذه التجربة، وتحمس بشـــدة للوحدة الإيطالية، ومحاولة تحقيق ما تم في الدول الأخرى، كما كان لموقف البابا من تلك الوحدة أثره المباشـر في آراء مكيافيللى المعادية للكنيسة وسلطة الكهنوت.

وقد ارتبط السـلام في فكر مكيافيللي "بالقوة " من منطلق اعتقاده أنَّ السـلام لا يتحقق داخليًا وخارجيًا إلَّا إذا تمتَّع الحاكم بالقوة المُطلقة التي يمتنع معها قيام النزاعات والحروب، ولذلك فهو يرى ضـرورة إطلاق يد الحاكم وسلطته في إدارة شئون الدولة، لأنَّ ذلك هو السبيل الوحيد لإقرار السلام.

ثالثا ـ مقاربة السلام في الفكرين الحديث والمعاصر:

في أحلك ســنوات القرن الحادي عشــر وهي تلك التي ســبقت مجيء "وليم الفاتح" إلى إنجلترا كانتِ الحرب تقضـــي بصـــورة مســـتمرة على براعم الحضـــارة المتفتحة في فرنسا وعلى ضفاف نهر الراين، وكأنَّما العصور المُظلمة قد عادت ثانية وأعقب الحرب هلاك المحاصـيل ثم المجاعة والأمراض حتى بلغ من شـدة الجوع أن الناس كانوا يأكلون اللحوم البشـرية، ولقد جاء على لسـان أحد الرواة أنَّ " لحم البشـر كان يُباع ويُشوى على الأسياخ وأنَّ القبور في بعض الجهات كانت تُنبش ويأخذ ما بها من جثث حديثة الدفن تستخدم طعامًا [12].

ورُبما كان آكل لحوم البشر في أوربا على هذا النحو هو الذي جعل من السهل على جنود الحملة الصليبية الأولى أن يأكلوا لحوم الموتى كما كانوا يفعلون.

ولقد قيل: إنَّ الناس في تلك الأوقات كانوا يجوبون الطرقات مطالبين بالســلم. ويبدوا أنَّ حركـات كثيرة قد قـامت في تلك الأزمنة ينادي فيها الناس بأن يحذو الجميع حذو الجماعة المُسـماة "إخوان الله أو إخوان السـلم"، ويُقال: إنَّه في عام 1182 تجلَّت لأحد النجـارين في إحدى الغـابـات الســـيدة مريم العذراء وأمرته أن يكون جماعة من الرجال يُؤلفون فيما بينهم رابطة ضد الحرب وكان عليهم أن يدعوا الله قائلين "يا الله يا غافر الذنوب أمنحنا السلام.

ولهذا أســـس هذا النجار جماعة "إخوان الســـلم " التي يبدو أنَّها حقَّقت بعض النجاح ولم يرد عن هذا الموضوع شيء آخر.

وفي مسـتهل القرن الرابع عشـر شـرح "بيير ديبوا" في مؤلفاته فكرة تكوين عصـــبة من الحكومات لمنع الحروب وأقترح في كتابه عن الدول المثالية الذي ســـمَّاه "اســترجاع الأرض المُقدســة" أن يكون هناك تحكيم دولي وأن تُؤلف سـلطة قضـائية دولية مُؤكدًا أنَّ " الحروب الصـــغيرة إذا أمكن إيقافها فإنَّ الحروب الكبيرة لن تحدث

"وأقترح أن يُؤخذ بمبدأ المقاطعة الاقتصادية، لكي تكون ضمانًا لتنفيذ قرارات الهيئة الدولية التي يجب أن يكون سلطاتها أعظم من سلطة كل دولة على انفراد، وفي رسائل إز از مس ما يدل على وجود معارضة فكرية للحرب كنظام .

كما تتضمَّن خطط مُقترحة لتكوين عصبة للسلم، ويُذكر " إز از مس " أنَّ صاحب هذه الخطط أمير أسمه " وليم آف شيفر"، ويبدو أنَّ هذا الأمر قد أقترح اتفاقية عامة لإنشاء اتحاد فيدرالي بين الدول ذات السيادة وأنَّ على هذه العصبة أن تأخذ بمبدأ التحكيم.

غير أنَّ هذا المُشروع لم يسفر عن شيء، ثم كتب "إز از مس " بعد ذلك كتابا سماه، "شكاية السلم" ومع أنَّ هذا الكتاب لا يشتمل على برنامج إنشائي إلَّا أنَّه ما زال دعوة قوية إلى مقاومة المشاعر التي كانت تحول دون وجود نظام دولي بناء وبازدياد الصراع بين الدول الأوربية نتيجة اكتشاف أمريكا عام 1492 أصبحت أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مسرحًا لحروب هائلة، ممَّا حمل بعض المفكرين إلى بيان أضرار الحرب والسعي إلى مشروعات للسلام بدأت في نطاق أوربا المسيحية، ثم توسعت شيئًا فشيئًا في القرن الثامن عشر لتشمل العالم بأسره.

فعلى سبيل المثال، الراهب الفرنسي "إمريك كروسيه" الذي كتب كتابًا صغيرًا يتألف من229 صفحة + 9 صفحات مُقدمة نشره في عام 1623 بعنوان قوينوس الجديد أو مقال في فرص ووسائل إقرار سلام عام وحرية التجارة في العالم كله[13].

وقد بدأه ببيان أسباب الحروب لإثبات أنَّها لا تستحق ما تُؤدي إليه من تكاليف المال والرجال، وهذه الأسباب هي: الشرف، الربح، التعويض عن الضرر، التدريب، الدين، اختلاف القوميات أمَّا الشرف: ففي رأيه أنَّه شيء تافه إذا كان لا بد أن يشتري بسفك الدماء، فليس في الحرب مغانم تعادل ما أنفق فيها من سفك الدماء وضياع الأموال وخراب الديار.

أمَّا الأديان: فيقول عنها " إنَّ كل الأديان اليهودية والمسيحية والإسلام بل والوثنية تقوم على حجج وتدعى معجزات وكل واحد منها يزعم أنَّه وحده الأفضل - ولم أحاول الفصل في هذا الخلاف - لكنني أقول إنَّها جميعا تهدف إلى غاية واحدة هي الاعتراف بالألوهية وعبادتها ولهذا فإنَّ اختلاف الدين لا يمكن إذن - أن يحول دون السلام العالمي، أمَّا مبدأ القوميات: فهو يقرِّبه لكنه لا يقيم له وزنة فيقول:

لماذا أنا الفرنسي أضمر الشر للإنجليزي أو الإسباني أو الهندي؟ لا يمكنني ذلك حين أنظر إليهم على أنَّهم أناس مثلي أنا تمامًا مثلهم وهم مثلي معرضين للخطأ والخطيئة = ولهذا ينتهي إلى ضرورة تنظيم السلام، بحيث يستقر ليس فقط بالنسبة إلى جيل واحد بل ليستمر طوال الأجيال التالية.

ولهذه الغاية يقترح "ضرورة اختيار مدينة يكون فيها لكل السلاطين سفراء دائمًا لفض الخلافات التي يمكن أن تنشب بينهم عن طريق إصدار حكم"، يحكم سائر المندوبين دون تحيُّز ويرى أنَّ المدينة الأصلح لاجتماع هؤلاء هي (النيرفين فينسيا)؛ لأنَّها شبه محايدة ويستوي لديها الأفراد، ولا يحدد " كروسيه " الاختصاصات ولا الإجراءات في هذه الجماعة "الجمعية" لكنه يطالب بالمصالحة والتوسط للصلح بين الدول المتنازعة، فإن لم تفلح محاولات الوساطة فإنَّ الجمعية المذكورة يصدر قرارها التحكيمي بأغلبية الأصوات، ويجب تنفيذ القرار إن أقتضى الأمر .

وفي عام 1634 أصدر "سلى" كتابه المسمى "مذكرات" [14]، وفيه يصف مشروعًا عظيمًا من وضع " هنري الرابع " ملك فرنسا وبمقتضاه يجب أن يكون اتحاد من الدول لإقرار السلام، ويُقال: إنَّ "الياصابات" ملكة إنجلترا كانت تجيز هذا المشروع التي كانت أهم نقاطه:

التنسيق بين الأشكال الثلاثة للديانة الأوربية، **والمساواة** في السلطة بين الملوك بالوراثة للممالك المسيحية **وتشكيل** مجلس من الدول الخمسة عشر ليكون الفيصل النهائي في شئون القانون والإدارة على أن توافق كل الدول على مهاجمة أية دولة تبدأ الحرب.

وعلى نحو ما شابه يقترح "وليم بن " 1644-1718، وهو من اتباع طريقة المقشعرين الدينية مشروعًا للسلام العالمي في كتاب نشره عام 1393 بعنوان "بحث في السلام الحاضر والمستقبل في أوربا"[15].

إنشاء مجمع أو برلمان أو دولة أوربية يُطالب فيه حكام أوربا بالاتفاق فيما بينهم، ووضع لائحة للعدالة تُطبق عليهم ويجتمع هذا الجمع كل عام مرة أو كل عامين أو ثلاثة أو كلَّما كان ذلك مفيدًا ليعرضوا أمامه المشاكل المعلقة فيما بينهم.

أمَّا فيما يتعلَّق بأعضاء هذا المجمع المندوبين عن حكامهم فإنَّه على الرَّغم من إقراره بضرورة المساواة في الحقوق بين جميع الأمم فإنَّه يضع فروقًا في عدد المندوبين تبعًا لعدد السكان بمقدار المصادر والثروة المادية، فالمساواة القانونية لا تستبعد نوعًا من الترتيب الهرمي بين الدول.

لكنه، وحرصًا على المساواة بين الأعضاء أقترح أن تكون المنضدة التي يجلسون عليها مستديرة حتى لا يكون هناك تصدر للبعض على البعض الآخر والقاعة نفسها يكون لها عدد كبير من الأبواب، حيث يمكن وصول المندوبين جميعًا في وقت واحد معا ، أمَّا رئاسة الجلسة فتكون بالتناوب، ولغة المناقشة هي اللاتينية باعتبارها " لغة رجال القانون والفرنسية لأنَّها كما يقولون لغة الطبقة الراقية ويعدد " بن " فضائل السلام على الحرب أما غريزة القتال وإرادة القوة فيدعوا إلى توجيهها نحو أعمال سلمية مفيدة للمجتمع كالأعمال اليدوية والميكانيكية .

وفي عام 1710 نشر " جون بلرز رسالة أقترح فيها إنشاء عصبة أمم وعقد مؤتمر سنوي للفصل فيما يحدث من نزاع بين الأفراد على الحدود والحقوق.

غير أنَّ : كل هذه المشاريع لم يكن لها أي صدى، أما أعظم عمل تقدمي في هذا الميدان خلال القرن السابع عشر فهو ما سُمى آنذاك " قانون الأمم "، وهو الذي يُسمى الآن بالقانون الدولي ، حيث تناول " غروتيوس" بالشرح والتحليل المبادئ الأساسية للقانون الطبيعي في كتابه " قانون السلم والحرب " واستخلص من هذه المبادئ الأسس العلمية للقانون الدولي سمَّاها القواعد التي تحكم المعاملات الدولية، وقد تأثر في هذه الآراء بالحوادث السياسية المعاصرة مثل حرب الثلاثين عاما والثورات الدينية والاضطرابات السياسية التي كانت في إنجلترا وهولندا وكل هذه الحركات جعلته يفكر في كيفية إقرار السلام والدعوة إلى استقرار الأمور .

ولعلَّ هذه الرغبات هي التي حدت به إلى كتابة مؤلفه عن قانون السلم والحرب، ثم نظم " بفندروف"، هذه المبادئ فالقانون الطبيعي الصادر عن العقل في نظره يساعد إلى حد كبير في تنظيم المجتمع السياسي؛ لأنَّ القانون بطبيعته يحتوي على العناصر اللازمة لإنشاء نظام عالمي يقوم على الاعتراف بالمصالح المشتركة والخدمات المتبادلة.

غير أنَّ اهتمام كل هؤلاء المقننين كان موجهًا إلى تقاليد الحرب أكثر من تنظيم السلم وبذلك كانوا أول من وضع سنة حذا حذوها مشرعو القانون الدولي فيما بعد، وهي تركيز الاهتمام في مسالة تحديد استعمال القوة أثناء الحرب، وكان الأفضل أن توجه جهودهم إلى تنظيم السلم.

أهم من كل هؤلاء هذا المجال هو " شارل رينيه كاستل " الملقب "الأب سان بيير"

أصدر في عام 1712-1713 كتابًا بعنوان " مشروع لجعل السلام في أوربا سلاما " والذي بين فيه أنَّ معاهدات السلام ليست فيها أي ضمان للاستمرار بل إنَّها

تنطوي على جرثومة حروب مُقبلة ولا تؤدي إلا إلى هدنات وقتية عابرة بين حروب وسيظل الأمر على هذا النحو طالما لم تؤلف الدول مجتمعًا منظمًا لهذا قدم مشروع لضمان بقاء السلام [16]خلاصته أنَّه يقترح إنشاء اتحاد بين الأمراء والملوك، والرؤساء، لتكوين ما يُشبه دولة اتحادية " فيدرالية " لها دستور فوق الدول، ولها وجود مستقل ومهمات واختصاصات متميزة عن تلك الخاصة بالدول المؤلفة لها وهذه المنظمة إلزامية، بمعنى أنَّها متى تكوَّنت تعتبر تكونت فعلاً .

إذا أنضم إليها أربعة عشر دولة فإنَّ كل الحكام يجب أن ينضموا إليها وإلا اعتبروا " أعداء الراحة في أوربا "، وأرغموا بالقوة على الانضمام إلى هذه المنظمة الدائمة، وعلى كل حاكم أن يقنع هو وخلفاؤه بالأرض التي يمتلكها فعليًا الآن. وعلى هذه المنظمة ضمان هذا الوضع وضمان سلامة أراضي كل دولة مشتركة فيها ولا يستطيع الحكام أن يجروا أي تبادل في الأراضي ولا أن يوقعوا فيما بينهم معاهدة بدون موافقة المنظمة بأغلبية " ثلاثة أرباع الأصوات".

كما يمكن للمنظمة التدخل في الشئون الداخلية لإحدى دولها من أجل المحافظة على شكلها الأساسي ولتقديم مساعدة عاجلة وكافية للأمراء في الحكومات الملكية والرؤساء في الجمهوريات ضد الثائرين والمتمردين، كما أنَّ المنظمة تتوَّلى إلى جانب المحافظة على السلام حماية نظم الحكم القائمة في دولها.

أمَّا عن إجراءات الفصل في النزاعات الدولية فيتم على مرحلتين: ـ المصالحة والوساطة في المرحلة الأولى، التحكيم في المرحلة الثانية ـ أمَّا عن العقوبات فهي ضرورية لهذا يقرر" سان بيير " ـ " أنَّ السيف ليس أقل ضرورة للعدالة من الميزان، والحاكم الذي يرفض تنفيذ التسوية أو الحكم الصادر ضده سيعلن أنَّه عدو الجماعة وتشعل الحرب ضده إلى أن ينفذ سلاحه وينفذ الحكم والتسويات الصادرة ضده، كما يدعو إلى تكوين جيش دولي الغرض منه تأمين السلام من أجل فرض احترام قرارات المنظمة.

ويقترح الأب " دى سان بيير " أن يكون مقر المجلس مدينة "أوترخت ورستات" [17] في هولندا؛ لأنَّه الأفضل كما قال اتخاذ مدينة هولندية لأنَّ الشعوب الهولندية أكثر الشعوب اشتغالًا بالتجارة وأوسعهم مجالًا فيها، ولأنَّ الشعب الهولندي أكثر الشعوب ميلًا للهدوء وأشدها حرصًا في المحافظة على السلام، وينادي كذلك بالمساواة في التجارة بين الدول الأعضاء في المنظمة وتنمية المبادلات التجارية، ويدعو أيضًا إلى إنشاء غرف تجارية ومحاكم تجارية في مختلف الدول ويمضي إلى

أبعد من هذا، ويطالب بإلغاء الرسوم الجمركية وتوحيد النقود وتوحيد الموازين والمقاييس تلك هي الخطوط العامة لمشروع السلام العالمي الذي وصفه الأب " دي سان بيير " ثم جاء " جان جاك روسو" فأستخرج منه مواضيع ونشرها وقدم لها بمقدمة مهمة بعنوان " مستخرج من مشروع السلام الدائم[18].

في سياق إبداء رأيه في مخطط السلام الدائم للأب دي سان بيير في العام 1761 يعترف روسو بأهمية اقتراحات المؤلف ويصف الكتاب بالجريء والعميق والضروري جدًا، لكنه لا يلبث أن ينتقد بساطة المؤلف التي تتمظهر في عدم توقفه بما فيه الكفاية عند الوسائل العملانية الآيلة إلى تنفيذ حقيقي لبرنامج من هذا النوع يتعلَّق بإرساء سلام دائم، وتشتد لهجته الانتقادية عندما يتناول ثقة الأب دي سان بيير الكبيرة وغير المُبررة بالأمراء والحكام القيمين علي شؤون المواطنين السياسية ، فعلى حد قول روسو كان الأب دي سان بيير يتصوَّر بطيبة مبالغ فيها أنَّ الأمر كله ينتهي بدعوة إلى مؤتمر وبتلاوة البنود التي صاغها من أجل السلام الدائم، وأن يوقعها جميع المعنيين ويتابع روسو تحليله، علينا ألَّا نقول: لم ينفذ المخطط لأنَّه سيئ بل تعذر تنفيذه لأنَّه كان جيدًا ويعود السبب في ذلك إلى أن الشر وسوء الاستعمال يرافقان في شكل طبيعي أعمال الشر، وما هو مفيد للشأن العام نادرًا ما يشق طريقه خارج القوة، لأنَّ المصالح الخاصة تكاد تعارضه باستمرار، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ السلام الدائم إنَّما هو حاليًا مشروع عبثي أو بالأحرى لنبذ إعجابنا بمخطط من هذا النوع جميل للغاية، وليعز بعضنا بعض الآخر، إذ لن نتمكن من رؤيته يدخل يومًا حيِّز التنفيذ، لأنَّ ما هو مفيد للناس لا يتحقَّق إلَّا بالقوة؛ لأنَّ المصالح الخاصة تتعارض معه دائمًا وتقاومه [19].

صحيح أنَّ السلام الدائم هو مشروع مستحيل وغير معقول في الوقت الحاضر لكن فلنعبر عن إعجابنا بهذه الخطة الجميلة ونواسي أنفسنا، لأنَّنا لا نراها تتحقَّق لأنَّ هذا التحقيق لا يمكن أن يتمُّ إلَّا بوسائل عنيفة مخيفة للإنسانية، وهكذا انتهى روسو إلى رفض مشروع (الأب دي سان بيير) وإن كان قد زين هذا الرفض بورود جميلة من الإعجاب والإطراء.

وممَّا هو جدير بالذكر أن (روسو) لم يشر أبدًا إلى أنَّه ينوي وضع مشروعًا للسلام ، والذين حاولوا معرفة رأي (روسو) في هذا الموضوع راحوا يتلمسون ذلك في مواضع متفرقة من كتبه " مقال في عدم المساواة ، شذرة عن حالة الحرب ، مقالة الإنسكلوبيديا "عن الاقتصاد السياسي، " كتاب " أميل " خصوصا الفصل الخامس " العقد الاجتماعي" وتأملات عن حكومة بولندا لكن هذه المواضع

كلها لا تتحدث عن مشروع دائم للسلام ولا عن تنظيم للسلام، ولا يمكن أبدًا أن تُؤلف نظرية عن التنظيم الدولي بل ولأشبه مخطط لذلك وأغرب ما في الأمر أن روسو في هذا الموضـــوع يدعى الحرص على الواقعية وما يمكن إنجازه فعلا؛ ولذا نراه كثيرًا يســـخر من فكرة القانون الدولي "؛ لأنَّ قانون بدون عقوبات ولا جزاءات ليس إلا خيالات وأوهام أشـد ضـعفا من قانون الطبيعة ، " أن القانون الدولي كما كان ليس له ضـمان غير منفعة من يذعن له فإن قراراته لا تحترم إلا بمقدار ما تؤيدها المصـلحة" (20).

ويقول روســو إنَّهم من ســوء الحظ يتصــرفون وفقًا لمصــلحتهم الخاصــة ومصـلحتهم الحقيقية تتمثل في السـلام على أنَّهم يظنون أن مصـلحتهم توجد في حالة الاســتقلال التام التي تبعدهم عن حكم القانون لتضــعهم تحت رحمة نزوة من نزوات الحظ مثلهم كمثل ربان مجنون يفضـل الإبحار وسط الصـخور إبان العاصـفة بدلًا من إلقاء مرساة لكي يبصر بحارته بما حولهم أو يوجههم ".

إنَّ حروب الفتح لا تجزي" فهـانيبـال" يكتـب إلى القرطـاجيين لقـد هزمـت الرومـان فـابعثوا لي بـالمدد، لقد أجبرت إيطاليا على الفدية فابعثوا بالأموال، وفي رأيه أنَّ كبار رجال الدولة يكسبون من وراء الحرب لأنَّها تجعلهم أكثر أهمية.

ولعلاج هذا يقول إذا اسـتطعت أن تحقق جمهورية أوربية ليوم واحد فسـيكون هذا كافيًا لأن تبقى إلى الأبد، فكل فرد يمكنه أن يجد مصـلحته الخاصـة في الخير العام وهكذا يكتب عن مشـروع الراهب " سـان بيير" عن السـلام الدائم ويختتم قائلا إنَّه " بسبب غباء الجنس البشري فإن المشروع يتضمن ثورة تبلغ حدا من الضخامة لا يمكن معه أن يكون عملية [21].

الخاتمة :

من خلال ما تم طرحه فلسفيًا وعبر آراء مفكري العصور السالفة نستطيع القول: إنَّ التحوّل الحضاري نحو فلسفة السلام يحتاج إلى تحوّل سياسي باتجاه الدولة المدنية التي تمارس الســياســـة على أســس علمية عالمية وإنســانية بعيدًا عن التمييز الديني والقومي والمذهبي، لأنَّ كل أنواع التمييز هي نوع من العنف السـياسـي تجاه المجتمع ومكوناته الإثنية والثقافية، وتتسبب في تقويض الاستقرار السياسي والاجتماعي، لأنَّها تتناقض مع فلسـفة السـلام، كما يتطلب الأمر تحوّلاً اجتماعياً – ثقافياً باتجاه قيم التمدّن والتقدّم، فالعالم من حولنا تشكّل عبر العصور على ثقافة الحرب والصراع الأمر الذي انعكس على البنية الإدراكية للإنسان، بمعنى أنَّ الانتقال إلى فلسفة السلام وتحويلها من

ترف فكري تتداوله نخب معزولة إلى ثقافة سياسية واجتماعية يتطلب ثورة معرفية تؤسس لترجمة فلسفة السلام إلى منظومات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ومؤسسية ومنظومة قيم وتشريعات وسياسات تعيد تشكيل حياتنا وعقولنا وعاطفتنا الجمعية واقتصادياتنا على أسس سلمية، تحتاج فلسفة السلام إلى إعادة تعريف كل شيء: الهوية والوطن والوطنية والمواطنة والانتماء والثقافة والنضال والأخلاق والخير والشر والعلاقة بين الذات والآخر، بمعنى أنَّها تحتاج إلى أن يستخدم الإنسان خياله وقدراته الابتكارية والنقدية والتحليلية إلى أبعد حد وبأقصى طاقة .

كذلك يستدعي الانتقال إلى فلسفة السلام على الصعيد الاقتصادي إقرار فلسفة اقتصادية تعتمد التنمية والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وتحقيق المساواة بين المواطنين في بناء قدراتهم المعرفية وتطوير مهاراتهم المهنية، لتكون لهم مشاركة حقيقية في النمو الاقتصادي والأنشطة الإنتاجية، فالسلام كان دائماً وعبر التاريخ منتجاً للازدهار الاجتماعي والرخاء المعيشي.

إنَّ الوصول إلى مجتمع السلام واقتصاد السلام يتطلَّب إشباع الحاجات الأساسية لأفراد المجتمع بشكل شامل.

الهوامش:

(1) محمد جلال شرف، تاريخ الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى ومشكلة التوفيق بين العقل والدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1984، ص 217.

(2) فؤاد محمد شبل، الفكر السياسي، دراسات مقارنة للمذاهب السياسية الاجتماعية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص118.

(3) حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1986، ص،151.

(4) بطرس غالى ومحمود خيري عيسى، المدخل في علم السياسة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1985ص، 147.

(5) عبد المعطي محمد ، الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص 17.

(6) شينى، لوج، ت: مجد الدين حفني ناصف، تاريخ العالم الغربي، القاهرة، دار النهضة العربية، ب. ت، ص196.

(7) حسين فوزي النجار، الفكر السياسي الحديث، القاهرة، دار الكاتب العربي، 1998، ص 14.

(8) نيقولا مكيافيللي، الأمير، تعريب، خيري حماد، ط 12، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1985، ص 238.

(9) جون باول، ت: محمد رشاد خميس، مراجعة: راشد البراوي، الفكر السياسي الغربي، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985ص 291.

(10) حسين فوزي النجار، مرجع سابق، ص 22.

(11) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، ك1، ت: حسن جلال العروسي، دار المعارف، مصر، 1954، ص ،25.
(12) دليل بيرنز، ت، لويس إسكندر، مراجعة، محمد أنيس، المثل السياسية، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1964، ص 343.
(13) عبد الرحمن بدوي، فلسفة القانون والسياسة، الكويت، وكالة المطبوعات 1979، ص 209.
(14) دليل بيرنز، المثل السياسية، مرجع سابق، ص 344.
(15) ممدوح عطية، عبد الفتاح بدوي، السلام الشامل والدمار الشامل، ط1، منشورات الصلاح للدراسات الإستراتيجية، 1991، ص 121.
(16) عبد الرحمن بدري، فلسفة القانون والسياسة، مرجع سابق ص 212 ".
(17) غاستون بوتول، هذه هي الحرب، ت: مروان القنواتي، ط1، منشورات عويدات، بيروت،1981، ص131.
(18) جان جاك روسو، المختار من العقد الاجتماعي، الكتاب الأول، ت، عبد الكريم أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000، 70.
(19) يقول روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) لقد ولد الإنسان حرا لكنا نراه مكبلا بالأغلال في كل مكان وهو يعتقد أن الأغلال التي تكبل الإنسان في كل مكان تعود إلى الأنظمة السياسية السيئة التي سلبتهم حريتهم الطبيعية التي ولدوا بها وحولتهم إلى قطيع من الأغنام ولكل قطيع راعيه الذي يحرسه ليفترسه وقد تلقف روسو فكرة الحرية الإنسانية عن جون لوك ، فلقد كان من الطبيعي أن يهتم جون لوك بموضوع الحرية وهو الذي انتصر للشعب في نزاعه مع الملك ومن ثم حاول أن يضع أساس الليبرالية السياسية التي دعمها " مل " الأب فيما بعد و أقيمت عليها الديمقراطية في الولايات المتحدة مما جعل الأمريكيين أنفسهم يصيفونه بقولهم إنه " فيلسوفًا أمريكيا وواضع الأساس لفكرها السياسي ، والواقع أنَّ موضوع الحرية الإنسانية كان الشغل الشاغل لجون لوك فجميع مؤلفاته الأساسية التي تعرض فكره السياسي تدور حول هذا الموضوع فكتابه " رسالة التسامح 1689 كتبها دفاعا عن الحرية الدينية وكتابه " رسالتان في الحكومة " 1690 كتبه دفاعا عن الحرية السياسية و" قيمة المال " 1691م كتبه دفاعًا عن الحرية الاقتصادية أي أنَّ كل مؤلف من مؤلفاته عبارة عن دراسة لمبدأ من مبادئ الحرية البشرية التي هي مشتقة بدورها من المساواة الطبيعية إذ ليس ثمة ما هو أوضح من أن الكائنات من نفس النوع والرتبة تولد مستمتعة بكل مميزات الطبيعية و بكل قواها. ولهذا ينبغي أن تتساوى كل التساوي فيما بينها دون أن يسخر أحدهما للآخر أو أن يخضع له وهكذا يظهر لأول مرة الأساس الديمقراطي وهو الحرية والمساواة في دراسة فلسفية متأنية تمت ترجمتها بصورة عملية بعد ذلك في الإعلان الأمريكي للاستقلال. جان جاك روسو، المختار من العقد الاجتماعي، ك1، مصدر سابق، ص 88.
(20) جراهام ولارس ، السياسة والطبيعة البشرية ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، د.ت، ص 32.
(21) جون باول، الفكر السياسي الغربي، مرجع سابق ص 453.